عبقريتنا الدينية

لقد اخترنا عنوان " عبقريتنا الدينية " لهذا الموضوع، بالذات إعتقاداً منا بأن الأمة العربية من دون سائر الأمم، تميزت بعقليتها الدينية وبالمنهجية الفكرية والمحتوى الروحي اللذين جاء بهما فريق خاص من البشر الممتازين المختارين الذين هم الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

كل شيء في تاريخ هذه البقعة العربية يشير إلى وجود الظاهرة النبوية الكريمة في إلحاح واستمرار، كما لو أن شخصية الجماهير فيها لا يستيقظ وجدانها إلا بأريج الدعوة الدينية وبالطريقة الخاصة التي حملت إليها على ألسنة العشرات من الأنبياء والمئات من حواريهم والمنتصرين لهم.

فكما أن الغرب اليوناني القديم، ومن بعده التيار الروماني اللاتيني، ومن بعدهما الغرب الأوروبي الحديث، يعتبرون الفيلسوف عنواناً لعبقريتهم وناطقاً بأفكارهم ومثلا لطريقتهم في استيعاب أشياء الطبيعة والوجود، ومفجراً لطاقاتهم الحضارية، وكما أن شعوب الشرق الأقصى، وجدت في الحكيم الفقيه ذي المهارات الروحية ورياضات اليوغا والإستعداد الدائم لمواجهة الألم والانتصار عليه، مثلا أعلى لعبقريتها الأخلاقية وخطتها في تحقيق أطماحها الحضارية، فإن الثابت أن العرب قد وجدوا في النبي عنوان عبقريتهم وينبوع نهضتهم ومصدر أمجادهم..

ونحن لا نعني بالطبع أن حظوظ الأنبياء صلوات الله عليهم من استجابة الجماهير لهم في كل المناطق العربية، هي حظوظ متشابهة، بل نعني أن تعاقب الأنبياء في المنطقة العربية بصورة ملحة وبطريقة أخذت منها مراحل الدعوة النبوية الطويلة بعضها برقاب بعض، هو توكيد للفطرة الدينية الخاصة عند الجماهير فيها وكشف عن طريقتها الأصيلة في وضع الإطارات الإجتماعية والفكرية لتعاليمها ومُثلها وأطماحها الإلهية.. فهي إذن ظاهرة أصيلة لا تشاركها فيها أية أمة في أية بقعة أخرى من العالم.

كان سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة بنزعاتهم العقلية التي يتفاوت اتصالهم لها بالأسطورة والخرافات وراء نبضات الفكر والفن والقيم الأخلاقية في تاريخ اليونان، كما كان دورهم مع الرومان هو نفسه

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

دور المعلمين الموجهين. وكان الكهان الهندوس وبودا في الهند وغيرها، ثم كونفوشيوس وطاو في الصين واليابان في كل عصور الشرق الأقصى، وراء النبضات الفكرية والفنية والأخلاقية والاجتماعية عند شعوب دون إستثناء.

ولا ننسى ديكارت ومن بعده كانت وماركس ودورهم في تحريك النبضات نفسها في تاريخ الغرب الحديث.

أما في المنطقة العربية وفي كل المراحل التاريخية التي تغوص بعيداً في أغوار التاريخ قبل المسيح، وتنطلق بعيداً إلى الأمام حتى اليوم، فإنّ النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وحده هو المثل الأعلى الذي تطلعت إليه نفوس الجماهير ما تزال قلوبها عالقة به حتى اليوم.

ولعل القرآن الكريم نفسه قد قدم هذه الشهادة توكيداً للوقائع التاريخية وكشفاً عن دور العرب القيادي في إعلان الدعوة الدينية واعتبارها عنوانا على عبقريتهم وأطماحهم الإلهية. فقد جاء فيه وهو الصادق الأمين قوله يخاطب العرب: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) " (آل عمران: 110).

وجاءت خطوة قرآنية كريمة أخرى تؤكد هذه الشهادة في قوله: " وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ

ولما كان الله سبحانه وتعالى لا يختار لرسالته إلا من يصلح لها وتصلح له، فمن الطبيعي جدا أن يكون العرب هم الشعب الذي تميز بحمل رسالة النبوات وصنع تاريخه الحضاري على صورتها.

ونحن إذ نثبت هذه الحقيقة إنما نقصد إلى تقرير ظاهرة خطيرة جدا ذات أبعاد واسعة الأطراف تعلن أن كل نهضة إيجابية ناجحة يجب أن تنطلق من الجذور التاريخية للأمة العربية. ولما كانت هذه الجذور هي الجذور الدينية الإسلامية فإن نجاح أية محاولة لتطوير وعي الجماهير وتعبئة طاقاتها الروحية وتحريك ضمائرها، مشروطة بالعودة إلى الينبوع الديني، وبالاستعانة التامة الشاملة بالثقافة الإسلامية.

في ضوء هذه الحقيقة نشعر أن الإنسان العربي الجديد هو إنسان الحقيقة الإسلامية. وأن الطاقات الهائلة التي تكمن في أعماق شخصيته لا تعرف طريقها إلى الدنيا ما لم تكن هذه الطريق هي طريق الإسلام وحسب.

ويزداد شعورنا بأهمية العملية الإحيائية للتراث الإسلامي كلما واجهتنا الأزمات وتزاحمت علينا الكوارث. إذ ليس كالكوارث والأزمات مناسبة لامتحان شخصية الشعب ووضعه أمام التحديات التي يندفع للتغلب عليها بكل ما يملك من الوجدان والقوة الأخلاقية والمحتوى الفكري والروحي.

والإنسان العربي اليوم كما كان بالأمس القريب أمام أزمة قارعة وكوارث متعاقبة تهز ضميره وتحرك وجدانه وتحضه على استجماع قوته كلها لإختيار مصيره وصنع مستقبله.

الإنسان العربي اليوم يبحث عن ذاته.

وهو يقوم بعملية البحث على نحو ملح وبطريقة عنيفة تتوتر بها أعصابه وتتفتح تحت ضغطها منافذ عقله وروحه.

وهو لا يتعب ولا يمل. إنه يعاود الكرة في كل مرة. ويتحسس طريقه أمام كل أزمة من الأزمات. وقد بلغ من عنف التجربة التي يعانيها منذ عشرين عاما أنه يعيش حالة من التمزق الروحي يواجه بها سلسلة لا تنتهي من عمليات التضليل وأكواماً من العراقيل والعقبات التي تزوغ به عن الجادة وتبتعد به عن الطريق.

إن ركاماً من الأفكار الغريبة يضغط على عقله وروحه.. وأن مئاتاً من المناهج والفلسفات والآراء تنتابه على نحو عجيب غريب يبدو معها وكأنه يخوض معركة جبابرة تطرح فيها كل القوى الاحتياطية، ويوجه فيها ضرباته في غير قصد واعتدال. إنه يشعر بالضياع. وأنّ فيوضاً لا تنقطع من الكتب والمؤلفات والمناقشات ومن ورائها ظروف نفسية غير ملائمة تأتيه من كل أقطار عقله وروحه فتوجه إليها الضربات عن يمينه وشماله ومن أمامه وورائه. وكلما سقط في الحلبة عاد يقف على قدميه فاحصا الأرض من تحته محملقا عينيه في كل ما حوله، محدقا في أعماق وجدانه، يبحث ويبحث دون كلل أو ملل. حتى ليصدق فيه قول الله تعالى في سورة الأحزاب. إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا...هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا. (الأحزاب 10-11).

وتستمر مأساة هذا الإنسان العربي.

ولكنها ليست مأساة الفراغ أو اليأس.

بلى هي مأساة الحياة التي تتمرد على البلادة والموت. ومأساة النور الذي يشق موجات الظلام.. ومأساة المعرفة التي تتحدى الجهل والأفكار المصنوعة.. ثم مأساة الإيمان التي تخوض معركتها ضد الإلحاد والضياع.

هذا الإنسان العربي هو الذي نمد أيدينا إليه وفي راحاتها كل أشواقنا وعواطفنا وأفكارنا.. نواجهه في يسر ونهمس في أذنه بحب عظيم ونقول له رأينا في طبيعة مأساته ونتعاون معه على اكتشاف الطريق ثم نؤكد له أخيرا أنه يتجه إليها اتجاه الجنين إلى الحياة، حينما يتم مخاضه وتستوي أسباب الحياة عنده ويستوفي في شروط الاستجابة الكاملة لتحديات الأخطار الخارجية.

إننا إذ نؤكد ايماننا بهذا الإنسان العربي نشعر أن كل يوم يمر، هو خطوة واسعة تعود بنا إلى ينابيع ديننا وإرادة الإبداع في أمتنا ونستروح بها العناية الإلهية تكلؤنا وترعانا وتوجهنا نحو مطالع النور.

إنّ العقبات التي واجهناها حتى اليوم لن تلبث في مستقبل قريب حتى تفتح عيوننا على عبقريتنا الروحية وتعبأ إرادتنا في رد التحديات بصلابة وقوة وثقة، لا سيما وأننا نحن الذين آمنا بأنّ الابتلاء الذي يزلزل الضمائر والقلوب هو الذي يفجر كل ما في المؤمنين من إمكانات النصر.

المهم هو أن نفيد من التجارب وأن نتعلم من الحياة وأن نوقظ بذور التراث الحي في نفوسنا.

إن الطريق إلى القمة طريق صاعد متعب. ولكن القمم هي مواطن الأبطال ومجاثم النسور.

إن أسطورة الضعف والتواكل قد ذهبت إلى غير رجعة. وها هي حقائق الإنسان الجديد الذي يكتشف ذاته تواجهنا بكل ما فيها من الحرار والشموخ والصراحة.